صورة التسامح في وصايا الإمام علي (عليه السلام)

دراسة بلاغية

أ.م.د. حيدر أحمد حسين الزبيدي

جامعة ديالى/ كلية العلوم الإسلامية

ملخص الدراسة

إن المستوى التصويري يأخذ أشكالاً عدّة في الخطاب الأدبي على وجه العموم، وفي الخطاب العلوي على وجه الخصوص ، وله طابع ذات قيمة أدبية وسمة جمالية إذا حرّك النفس الإنسانية محدثاً فيها التأثير الكبير ، وكلّ هذه الأمور تكمن في مُسمّى التسامح الذي اتخذه الإمام علي (عليه السلام) فضاءً واسعاً وعنواناً بارزاً في كثير من وصاياه لقادة جيشه وولاة أمره وأبنائه وأقاربه ، مستعملاً الألوان البلاغية بمختلف فنونها لتثبيت هذا المفهوم في نفوس المتلقين حفاظاً على اللُحمة الإسلامية من الشتات ، من هنا جاءت الدراسة لتكشف عن الأبعاد الجمالية والطاقات التأثيرية لصورة التسامح متكئاً على الألوان البلاغية ليكون العنوان **(صورة التسامح في وصايا الإمام علي (عليه السلام) . دراسة بلاغية)** .

Abstract

The pictorial level takes many shapes in literary discourse ,specifically in high discourse . It has a literary feature and a beautiful impact which moves human spirit that makes the great effect . All these things embodied in tolerance by Immam Ali and take wide space and a prominent address in many of his commandments to lead his army and his mother and his son and his relatives , using rhetorical colours in different arts to stabilize this concept in the hearts of recipients to keep the Islamic unity from loss. This study is to discover the dimensional aesthetic and energies to the image of tolerance situated on rhytorical colours to make a title (the image of tolerance in the commandments of Immam Ali) .

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين ، حبيب إله العالمين أبي القاسم محمد وآله الطيبين الطاهرين ، وصحبه الغر المنتجبين .أمّا بعد فإنّ الفكر الإنساني تركيبة معقّدة صُنعت ممّا وفرته الحياة من ثقافات ومعتقدات وعادات مختلفة ، فالمستوى الفهمي والمعرفي لكلّ إنسان مختلف عن الآخر ، بالتالي ينصب هذا كلّه في اختلافتنا مع بني جنسنا ، وقد وهبنا الله (سبحانه وتعالى) وسائل تمدّنا بديمومة الحياة الهادئة ، ومن تلك الوسائل (التسامح) الذي هو فعل إنساني ينشر الرحمة والمودّة في قلوب البشر ؛ لنبذ الضغائن والأحقاد بينهم . وأعطى الإمام علي (عليه السلام) للتسامح مساحة رحبة في وصاياه ، سواء أكانت موجّه إلى الخواص أم العوام ؛ كونه صفة إنسانية نبيلة , ووسيلة تؤطّر التواصل العلائقي بين بني البشر ، مستمدّاً من البلاغة ما تزخر به من جماليات دلالية وطاقات تأثيرية ، لها القدرة على تحفيز مسمع المتلقي وذهنه ، مركّزاً على الصورة التي تنفتح على آفاق التأويل البلاغي ، فجاءت المظاهر البلاغية في بنية متلاحمة ومكثّفة ، وصوّرت التسامح خير تصوير . ولذلك كان عنوان البحث (صورة التسامح في وصايا الإمام علي (عليه السلام) . دراسة بلاغية) ، مقسمة على تمهيد عنوانه (في فضاء الصورة والتسامح ونهج البلاغة) وثلاثة مطالب كان أوّلها : وصاياه إلى عموم المسلمين ، وثانيها : وصاياه إلى ولاة أمر المسلمين ، وثالثها : وصاياه إلى أهل بيته ، وانتهت الدراسة بخاتمة تحمل جملة من النتائج .

التمهيد : في فضاء الصورة ، والتسامح ، ونهج البلاغة : تأخذ الصورة أشكالاً متعددة في نتاجات الأُدباء وتبقى السمة الأبرز لدى بعضهم ممن يُحكم استعمالها في النص ، بوساطة توظيفها بالشكل المميز في إيصال الفكرة إلى المتلقين ، ولا شكّ أنها تختلف في الاستعمال من موضوع إلى آخر لكن قيمتها الجمالية لا تتغير وإنّما تسمو نحو الابداع إذا أُتيح لها مُفَكِّر فذّ ، فهي ((جزء حيوي في عملية الخلق الفنّي))[١], وذلك متأتى من كونها ((قوة خلاقة قادرة على نقل الفكرة , وإبراز العاطفة , وهي الشكل الخارجي المعبر عن الحالة النفسية للمنشيء وعن تفاعله الداخلي))[٢], بوصفها من أهم الأدوات التي يوظفها الشاعر للتعبير عن أفكاره وأحاسيسه , لذا يمكن القول إنّها ((الأداة التي تتربع على سائر الأدوات الشعرية))[٣], التي تعكس الأبعاد النفسية للأديب , وتقوم على البثّ الجمالي للمعنى مخاطبةً الوجدان , بهدف تحريك الفاعلية الذهنية والشعورية للمتلقي؛ لأنّها ذات أبعاد حسية تنطلق إلى المتلقي بشحنةٍ مليئةٍ بالعاطفة والإنفعال[٤], فمن مهمّات الصورة أن ((تنهض بذوق المتلقي وترتفع به إلى إحساس جمالي يندّ عن أبعاد لا تنضب , وتدعوه إلى استثمار قدراته العقلية والنفسية جميعاً))[٥], وهي بذلك تكون لها إمكانية التأثير وتحريك النفس الإنسانية التي ((تتفاعل مع مايتماشى وحركتها الشعورية , وماتجده معبراً بصدق عن خلجاتها))[٦] , فهنا تظهر قدرة الأديب وبراعته في صنع تلك الصور التي تلقي بتأثيراتها الجمالية على المتلقي ملتمسةً وجدانه وفاتحةً لباب التأويل ؛ لأنّ الشاعر عندما يكتب يفرغ مشاعره داخل الكلمات , فلابدّ لهذه المشاعر المكتوبة قيمة شعورية هدفها الوصول إلى وجدان المتلقي وتحريك ذهنه , فهي بمثابة حلقة وصل بين الشاعر والمتلقي , فتكمن فاعلية الصور الشعرية في ما ((يتحقق فيها من تناغم بين الوظيفتين المعنوية والنفسية في بنية العمل الفني المتكامل))[٧], وهنا يمكن القول إنّ ((مقياس جودة الصورة النهائية هو قدرتها على

الإشعاع , وما تزخر به من طاقات إيحائية , فبمقدار ثراء الصورة الشعرية بالطاقات الإيحائية ترتفع قيمتها الشعورية))[٨] ، ولذلك إن أجمل الصور هي تلك التي تُحدث ضجّة تأثيرية في نفوس المتلقين . **التسامح لغة** : جاء في لسان العرب في مادة (سَمَحَ) السماح والسماحة : الجود، سَمُحَ سماحةً وسُمُوحة وسماحاً : جاد ، ورجلٌ سَمْحٌ وامرأة سَمْحة ، من رجال وعرب سِماح وسُمحاء فيهما . وتقول العرب : عليك بالحق فإن فيه لَمَسْمَحاً أي مُتَّسعاً[٩]. ولم يرد في القرآن الكريم لفظ التسامح بصورة صريحة ، لكنه يوجد إلى ما يشير إلى معناها مثل مفاهيم التقوى والتشاور والتواصي والتراحم والتعارف ، كقوله تعالى ﴿**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**﴾ (البقرة : ٢٥٦) ، وقوله تعالى : ﴿**لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاء**﴾ (البقرة : ٢٧٢) ، وقوله تعالى : ﴿**فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (المائدة : ١٣) ، وقوله تعالى : ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ**﴾ (الحجرات : ١٣) ، والذي يُنعم النظر في القرآن الكريم يرى أن التسامح قد تم ذكره بصورة متأنية متطورة على وفق تطور الدعوة الإسلامية في مخاطبة عقول الناس ، حيث مثل القرآن حالة متميزة للتعبير عن هذه المفردة في مناسبات عدة . وأمّا التسامح اصطلاحا : فالتعريفات فيه كثيرة ، وأجملها ما قاله فولتير الذي سُئل عن التسامح فأجاب قائلاً : ((إنه نتيجة لكينونتنا البشرية ، إننا جميعاً نتاج الضعف، كلنا هشّون وميّالون للخطأ، لذا دعونا نسامح بعضنا البعض ، ونتسامح مع جنون بعضنا البعض بشكل متبادل، وذلكم هوالمبدأ الأول لقانون الطبيعة ... فهو المبدأ الأول لحقوق الإنسان كافة))[١٠], وقصد فولتير بذلك قبول اختلاف الآخرين في الدين والعلم والعرق ، فهو عدم منع الآخرين من ممارسة حرياتهم ، أو إكراههم على التخلّي عنها ، فالتسامح في أبسط مفاهيمه قبول الآخر واحترام رأيه . وأمّا **نهج البلاغة** فيعدّ من الكتب النفيسة والحلل النادرة ، ألفاظه تُهذّب المتكلّم وتُدرّب المتعلّم أحسن القول ، وأفضل المعاني ، وكلامه يجري مجرى السحر الحلال ويرتفع عن نعوت الكلام ، وتنقاد له أسماع المتلقين غاية في الاذعان فنهجه يعدّ من ((عجائب البلاغة ، وغرائب الفصاحة ، وجواهر العربية ، وثواقب الكلم الدينية والدنيوية ما لا يوجد مجتمعاً في كلام ، ولا مجموع الأطراف في كتاب ، إذ كان أمير المؤمنين (عليه السلام) مشرع الفصاحة وموردها ، ومنشأ البلاغة ومولدها ، ومنه (عليه السلام) ظهر مكنونها ، وعنه أخذت قوانينها ، وعلى أمثلته هذا كل قائل خطيب ، وبكلامه استعان كل واعظ بليغ))[١١] ، والذي يقرأ نهج البلاغة للإمام (عليه السلام) يرى رصانة ألفاظه ، وجزالة معانيه من خلال التعبير عن الأفكار المجردة بصور بلاغية رائعة تنطلق من وحي القرآن ومعانيه ، وترى أن العامل الوجداني لا يفارقها ، واختلاط الأمور السياسية في كثير من المواقف بالأمور الدينية ، فضلاً عن التأثيرات الإيقاعية ، الصادرة منها، التي أسهمت بشكل كبير من العلماء ، والأدباء ، والباحثين قديماً وحديثاً ، ومن يستقرئ تلك الأبحاث سيتأكد من بلاغته وتمكنه في فصل الخطاب ، حتى إذ وصفه الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) قائلاً : ((ما قرع سمعي كلام ، بعد الله ، وكلام رسوله ، إلا عارضته ، إلاّ كلمات لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب – كرم الله وجهه– فما قدرت على معارضتها))[١٢] . ولعلّ ما يميز هذا الكتاب يكمن في براعة صاحبه على مزج روائع البيان الجاهلي بالبيان الإسلامي بمنطق لا يمكن فصل بعض ألفاظه عن بعض ، ولذلك ترى روعة هذه النصوص حاصلة من استقاء ألفاظه من معين القرآن الكريم ، وسحر البيان النبوي ، والاستفادة من تجارب عصر ما قبل الإسلام من أجل تقديم معنى بغاية السبك ، ولفظ بغاية الجزالة ؛ لتكون موضوعاته في أغلب مضامين الحياة الدينية والدنيوية من أحوال الدنيا وطبائع الناس ، ومظاهر الطبيعة وخفايا المخلوقات وعن الفتن والحروب والموت والجنة ونعيمها ، والنار وجحيمها ، وأمور كثيرة يستطيع القارئ أن يجدها بمجرد قراءة نهج البلاغة ، فهذا المبدع استطاع أن يوصل البيان السابق بالبيان اللاحق ، بل إن له من روائع البلاغة والبيان ما أذهل كل من نطق لغة الضاد وألمّ بها وبرع فيها [١٣]، والذي يقف على مضامين الإبداع في الكلام العلوي يرى تلك القدرة الفريدة في التعبير عن الأفكار المجردة بصور بلاغية رائعة ، تختلف في كثير من خطاباته الأمور السياسية التي تعبر عن قوة ذلك القائد الفذ الذي يعرف كيفية استخلاص تلك المعاني التي تؤثر في الأمة الإسلامية على وجه الخصوص ، والإنسانية على وجه العموم .

صور التسامح في وصايا الإمام علي (عليه السلام)

أولاً : وصاياه إلى عموم المسلمين ومن ذلك قوله (عليه السلام) : ((**إِنْ لِمَنْ غَالَظَكَ فإنهُ يُوشِكُ أَنْ يَلِينَ لَكَ**))[١٤] . فشعرية هذا النص تنهض بوساطة حضور الألوان البلاغية على المستوى الظاهر ، والخفي في الجناس المطرَّف بين (لن – لمن) فـ(لن) من الليونة ضد الخشونة ، وهو فعل أمر خرج معناه إلى النصح والإرشاد، ممزوجا بـ(الطباق) ، وحضور مظهر (التعليل) ليوضح سبب هذا الأمر الصادر إلى الشخص المأمور بهذا الفعل والتجاور الخفي أن هذا النص يحمل في فضائه (تناص مثل) ، و(تناصاً قرآنياً) فـ(تناص المثل) كون النص أصله إلى المثل المشهور((إذا عزَّ أخوك فهن))[١٥] ، و(التناص القرآني) في قوله تعالى : ﴿**وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ**﴾ (سورة فصلت: ١٣٤)، والمعنى إجمالاً أن يلين الإنسان إلى الشخص الذي تبدو منه الخشونة والغلظة

، فلعل تصرفه غير المحمود يزول بحسن تصرفك معه ، وهذا النوع من الفعل يحتاج إلى معرفة روية وأخلاق عالية ، وأدب جم ، وهذه صفات أهل البيت (عليهم السلام) ، وهذه المقولة تعطي صورة من صور التسامح التي يريد بثّ روحها الإمام بين المسلمين ، ولذلك إن ((اللون الذي نراه أمامنا في أية لوحة فنية لايكتسب صفته إلاَّ من الألوان الأخرى التي صاحبته وظهرت معه ، وحجم أي شيء وطوله لا يمكن أن يقدر إلاَّ بمقارنتها بحجم الأشياء وأطوالها التي ترى معها ، كذلك الحال في الألفاظ فإنَّ معنى اية لفظة لا يمكن أن يتحدد إلاَّ من علاقة هذه اللفظة بما يجاورها من ألفاظ))[١٦].وقوله (عليه السلام) : ((**وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَاصُلِ وَالتَّبَاذُلِ ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ**))[١٧]. فهذا المقطع يحيل القارئ على جملة من المظاهر البلاغية ، لعل أبرزها ذكر مظهر (الأمر) لغرضين ، مرة جاء لغرض النصح والإرشاد بوساطة التعبير باسم فعل الأمر (عليكم) بمعنى (إلزم) ، أو(احفظ) ، ومرة أخرى بمعنى التحذير بلفظ (إياكم) الذي هو مفعول لفعل محذوف وجوباً ، أي أُحذركم ، وفيه إضمار لحرف الجر للفظ التدابر، أي : من التدابر ، من باب (الحذف) ؛ من أجل الحفاظ على النسق الموسيقي ، والتواشج الإيقاعي للمقطع، وهذا ما أثبته حضور (السجع المتوازي) في (التواصل – التباذل) ، وحضور (التوازن) في (التدابر – التقاطع) ، فضلاً عن ذلك ان المقطع قائم على مظهر (المقابلة) ، والمعنى ظاهر حيث يكمن في كون الإنسان عليه أن يتواصل ، ويبذل له النصرة في سبيل الله ، والحذر من أن يصبح في يوم من الأيام قاطعاً للرحم ، متعادياً مع الناس ، والعياذ بالله ، فحضور أسلوب الأمر بمعنيين مختلفين ، مع جملة من المظاهر البلاغية عمل على تأكيد المعنى بوساطة إبراز خصائصه الأسلوبية ، والتي تصب في منتهى الأمر لصالح الشعرية ، التي صوّرت التسامح بين الناس في أبهى صوره . وقوله (عليه السلام) : ((**لِيَتَأَسَّ صَغِيرُكُمْ بِكَبِيرِكُمْ ، وَلْيَرْأَفْ كَبِيرُكُمْ بِصَغِيرِكُمْ ، وَلاَ تَكُونُوا كَجُفَاةِ اَلْجَاهِلِيَّةِ ، لاَ فِي اَلدِّينِ يَتَفَقَّهُونَ ، وَلاَ عَنِ اَللَّهِ يَعْقِلُونَ ، كَقَيْضِ بَيْضٍ فِي أَدَاحٍ ، يَكُونُ كَسْرُهَا وِزْراً ، وَيُخْرِجُ حِضَانُهَا شَرّاً**))[١٨]. فالمسحة الجمالية لهذا النص حاصلة بتلك الفنون البلاغية التي جسَّدها النص بدءاً بـ(الأمر) الذي جاء مع (الطباق) في (ليتأس صغيركم بكبيركم ، وليرأف كبيركم بصغيركم) ، فيأخذ الصغير من الكبير أخلاقه ، وورعه ، وخبراته في الحياة ، وأن يرأف الكبير بالصغير، بوساطة رحمته له ، وأن لا يكرهه على أفعاله ، ((وإنَّما بدأ بأمر الصغير؛ لأنه أحوج إلى التأديب))[١٩]، وجيء بـ(النهي) مع (التشبيه) في صور قل مثيلها ؛ لأنه مزج في هذه اللوحة التشبيهية ما بين (التشبيه المفصل) ، في نهيه لهم بأن لا يكونوا مثل جفاة الجاهلية في القسوة ، لعدم تفقههم في الدين ، ومعرفتهم اوامر الله ﷻ ، مصوراً هذه الفكرة بـ(التقديم والتأخير) بتقديمه الجار والمجرور على الجملة الفعلية ؛ لأجل الاختصاص، ويعرف هذا النوع بـ(التشبيه المركب) ، وشبههم ببيض الأفاعي ، باستعارته لفظ (الأداحي) للأعشاش من باب المجاز ؛ لأن الأداحي لاتكون إلاَّ للنعام ؛ لدحوها البيض برجليها في الأرض[٢٠]، ووجه الشبه أن كاسر هذا البيض آثم ؛ لتأذي الحيوان به ، أو قد يكون البيض لأحد الطيور ، وعدم كسره موجب للشر ؛ لأن بعدم كسره تخرج الأفعى القاتلة منه ، كذلك حال هؤلاء الجفاة فلا يجوز إهانتهم ، أو أذاهم ؛ لأن الإسلام حرَّم ذلك ، وان تركوا في جهلهم وغيهم كانوا مظنة لإبليس بتوجيههم نحو الشر وأذى الناس ، وهذا الكلام من باب تشبيه المحسوس بالمحسوس . والكلام بمجمله من لطيف إشارة ذلك المنشئ ، ومن بديع معانيه . ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**إِيَّاكُمْ وَاَلْفُرْقَةَ ، فَإِنَّ اَلشَّاذَّ مِنَ اَلنَّاسِ لِلشَّيْطَانِ ، كَمَا أَنَّ اَلشَّاذَّ مِنَ اَلْغَنَمِ لِلذِّئْبِ ، أَلاَ مَنْ دَعَا إِلَى هَذَا اَلشِّعَارِ فَاقْتُلُوهُ ، وَلَوْ كَانَ تَحْتَ عِمَامَتِي هَذِهِ**))[٢١]. تنهض جمالية هذا النص بوساطة حضور المظاهر البلاغية مع بعضها ، مكونة بهذا الالتحام الأسلوبي أحد المعاني التي تنهى عن الفرقة ، فمظهر (الأمر) الذي جاء بالضمير (إياكم) الذي خرج معناه إلى التحذير ، الذي هو ((تنبيه المخاطب على أمر يجب الاحتراز منه))[٢٢]، مع وجود مظهر (الحذف) ؛ لأن (إياكم) منصوب بفعل مضمر وجوباً تقديره : احذروا ، و(التعليل) في بيان التحذير من الفرقة، و(التشبيه) في بيان حال من يشذ رأيه عن الجماعة ، ووجه الشبه أن الشاذ من الناس عرضة للهلاك باستغواء الشيطان إياه ، كالشاة المنفردة عن الغنم عرضة لافتراس الذئب ؛ لتفردها عن القطيع ، والجامع ما بين الاثنين الهلاك . وجيء بعبارة ألطف أسهم في صياغتها التجاور الحاصل بين (المبالغة) ، و(الكناية) في كون من يعمل على بث شعار الفرقة بين الجماعة يجب قتله ؛ حتى لا يفرق بين صفوف المسلمين ، ولو كان هذا الداعي تحت عمامتي وهو مبالغة في الكلام ، وكناية عن أقصى القرب منه ، ولأجل ألاَّ ترتاب قلوب الناس من بعده كان الأمر صادراً عنه بهذه الهيئة ؛ لعلمه بما سيفعله قسم من الناس بتقسيم المسلمين بدعوى أنهم يحملون عمامة الإمام ، فكنايته في هذا النص ذات معنى هائل ؛ لأنها خرجت بفكرة مؤدَّاها أن كلمة الجماعة أعلى رتبة من أي شخص يدعو إلى الفرقة حتى لو كان الداعي الإمام ، مع علو منزلته .فالإمام إنَّما صاغ هذا النص بهذه الفكرة ؛ لتعظيم الأمر الذي قام به الخوارج آنذاك فما كان منه إلاَّ أن خاطب الناس بهذا الأسلوب بوساطة توظيف المظاهر البلاغية للمعنى الذي أراد إيصاله للمتلقي .

ثانياً : وصاياه إلى ولاة أمر المسلمين ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**وَلاَ تَكُونَنَّ عَلَيْهِمْ سَبُعاً ضَارِياً تَغْتَنِمُ أَكْلَهُمْ ، فَإِنَّهُمْ صِنْفَانِ : إِمَّا أَخٌ لَكَ فِي اَلدِّينِ ، وَإِمَّا نَظِيرٌ لَكَ فِي اَلْخَلْقِ ، يَفْرُطُ مِنْهُمُ اَلزَّلَلُ ، وَتَعْرِضُ لَهُمُ اَلْعِلَلُ ، وَيُؤْتَى عَلَى أَيْدِيهِمْ فِي اَلْعَمْدِ وَاَلْخَطَإِ**))[٢٣]. يقدم الإمام هنا نصاً بلاغياً متميزاً بوساطة ذلك التناغم الدلالي والتقارب الصوتي ؛ ليكشف عن مضمون نصي متفرّد عنوانه التسامح إذ تنهض شعرية هذا النص من الديباجة التي صيغ فيها الكلام ، وكأن المظاهر البلاغية هي التي تتحدث عن نفسها ، بل تحدثت وأفصحت عن صورة أسهمت في إرساء المعنى في عقل ، ووجدان المخاطب ، فالنص بدأ بـ(النهي) الذي اتصل فعله المضارع بنون التوكيد الثقيلة ، الذي خرج معناه إلى النصح والإرشاد، بالتجاور مع (التشبيه) في لفظ السبع، وقوله: تغتنم أكلهم عمل على تعميق الصورة التشبيهية ، وجاء بـ(التعليل) لبيان معنى النهي ، وبـ(التقسيم)؛ لتوضيحه له أقسام الناس في كونهم ضمن ما ذكر فهم أما أخوة لك في الدين ، ولك ما لهم ، وعليهم ما عليك ، أو أناس مثلك يحملون الطبائع البشرية ، فالرحمة واجبة لهم ، وجيء بـ(الجناس المضارع) في (الزلل – العلل) ؛ لكونهم غير معصومين عن الخطأ في حياتهم الدنيوية ، وسجَّلت (الكناية) حضوراً مميزاً في قوله : (يؤتى على أيديهم) التي هي كناية عن كونهم ليسوا بمنأى عن الوقوع في الخطأ ، والكلام فيه تقدير : أي أن كل من يقع في هذه الأمور يجب أن يشمل بالمحبة والعطف ، وأن يقابل خطأه بالعفو والصفح ، فهذه المظاهر البلاغية عكست أهمية الموضوع المراد الالتزام به من جهة المتلقي الذي قد يكون في يوم من الأيام والياً على المسلمين . والكلام إذا ما بقي على هذه الهيئة ترى صداه في نفوس المتلقين ، وأقرب إلى ما يعرف بخلود العمل الفني على مر الأزمنة ، وهذا يفسر سرَّ بقاء هذه النصوص العلوية إلى هذا اليوم .ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَوَلِّ مِنْ جُنُودِكَ أَنْصَحَهُمْ فِي نَفْسِكَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ وَلِإِمَامِكَ ، وَأَطْهَرَهُمْ أَنْقَاهُمْ جَيْباً ، وَأَفْضَلَهُمْ حِلْماً ، مِمَّنْ يُبْطِئُ عَنِ اَلْغَضَبِ ، وَيَسْتَرِيحُ إِلَى اَلْعُذْرِ، وَيَرْأَفُ بِالضُّعَفَاءِ ، وَيَنْبُو عَلَى اَلْأَقْوِيَاءِ ، وَمِمَّنْ لاَ يُثِيرُهُ اَلْعُنْفُ ، وَلاَ يَقْعُدُ بِهِ اَلضَّعْفُ . ثُمَّ اِلْصَقْ بِذَوِي اَلْمُرُوءَاتِ وَاَلْأَحْسَابِ ، وَأَهْلِ اَلْبُيُوتَاتِ اَلصَّالِحَةِ ، وَاَلسَّوَابِقِ اَلْحَسَنَةِ ، ثُمَّ أَهْلِ اَلنَّجْدَةِ وَاَلشَّجَاعَةِ ، وَاَلسَّخَاءِ وَاَلسَّمَاحَةِ ، فَإِنَّهُمْ جِمَاعٌ مِنَ اَلْكَرَمِ ، وَشُعَبٌ مِنَ اَلْعُرْفِ**))[٢٤]. فالقيمة الجمالية لهذا النص تكمن في شعريته الحاصلة بفعل الفنون البلاغية التي عملت على خلق لوحة فنية عنوانها أدب الوصايا إلى القادة وأمراء الجيش . فالنص بدأ بمظهر (الأمر) في أن يولي آمر الجيش من جنوده من كان أنصحهم لله ولرسوله ، وأطهرهم جيبا وهذا من باب (الكناية) عن الأمين الناصح، وصاحب العفة ، وأفضلهم حلما ، وراح يفصّل له أوصاف ذلك بتجسيد مظهر (التوازن) في (الغضب – العذر) ، أي أنه لا يتخذ القرار عند الغضب ، ويقبل العذر من الآخرين ويعمل على مسامحتهم ، وحضرت (المقابلة) في (يرأف بالضعفاء – وينبو على الأقوياء) ، ومرة ممزوجة مع (التقديم والتأخير) ؛ لأجل التناغم الصوتي في (لايثيره العنف – لا يقعد به الضعف) ، أي لا يكون له عنف فيستثيره ، ولا يقعد به الضعف عن اخذ الحق من الظالم إلى المظلوم .وجيء بجملة من الألوان البلاغية بجمعه (التعليل) ، و(التوازن) ، و(المجاز المرسل) في إطلاق اسم اللازم على ملزومه في قوله : (فإنهم جماع من الكرم ، وشعب من العرف) ، حيث أمره أن يجعل في هذه المرتبة الأوصاف المذكورة ، معللاً ذلك أن تلك الأوصاف جماع من الكرم وهي أوصاف ملازمة لهم ، أما الأمانة والسخاء والسماحة فهي فضائل تحت مسمى العفة ، والحلم والنجدة فضيلتان تحت مسمى الشجاعة . ومثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَاخْفِضْ لَهُمْ جَنَاحَكَ ، وَأَلِنْ لَهُمْ جَانِبَكَ ، وَابْسُطْ لَهُمْ وَجْهَكَ، وَآسِ بَيْنَهُمْ فِي اَللَّحْظَةِ وَاَلنَّظْرَةِ ؛ حَتَّى لاَ يَطْمَعَ اَلْعُظَمَاءُ فِي حَيْفِكَ لَهُمْ، وَلاَ يَيْأَسَ اَلضُّعَفَاءُ مِنْ عَدْلِكَ عَلَيْهِمْ**))[٢٥]. إن روعة هذا النص تقوم على القدرة التعبيرية المختزلة لتراكيبه الجمالية الخارجة عن المألوف باستعمال البنى الصوتية والتركيبية والدلالية ؛ لتحقيق المفاجأة عبر بناء لغوي تم استثماره في إيصال صورة التسامح إلى الآخرين ، بوساطة هذا النص الموجّه إلى محمد بن أبي بكر حينما تقلد حكم مصر ، فبدأ (الأمر) الذي خرج معناه إلى النصح والإرشاد ، مع (الاستعارة) في (اخفض – ألن) ، و (الكناية) في (ابسط – آس) ، فضلاً عن حضور (التعليل) باستعمال أحد أدواته (حتى) مع وجود (المقابلة) في (لا يطمع العظماء في حيفك ، ولا ييأس الضعفاء من عدلك عليهم) ، و(التناص) في (اخفض لهم جناحك) والمعنى إجمالا لا يخرج عن إطار التواضع ومكارم الأخلاق بحق الرعية ، فأمره بخفض الجناح للتعبير عن التواضع الحاصل منه في الشفقة والرحمة ، وأمره بإلانة جانبه للتعبير عن الرفق في القول والفعل ، وعدم الغلظة عليهم والجفوة في حقهم ، وأمره أن يبسط لهم وجهه كناية عن لقائهم بالبشاشة والطلاقة من دون عبوس ، وأن يواسي بينهم في النظرة واللحظة وإن كانت أخف من النظرة ، فهي كناية عن استعمال العدل بينهم في جميع الأمور قليلها وكثيرها ؛ من أجل ألاّ يطمع العظماء في حيفك لهم ؛ لأن العادة جرت أن يُختص الولاة والأمراء بالإقبال والبشاشة دون الضعفاء وهذا الفعل مستلزم لطمعهم في أن يحاف لهم ، على حين الإعراض عن الضعفاء مستلزم لليأس من العدول في حقهم ، فامتزاج الأمر بالاستعارة و بالكناية من جهة ، وتجاوره مع الألوان البلاغية من جهة

أخرى هدفه تحطيم ذلك المبنى الفكري عند الولاة والأمراء والقائم على عزل الرعية والحيف لهم ، مع الاستمالة إلى العظماء منهم، والانتصار لهم .

ثالثاً : وصاياه إلى أهل بيته : مثاله قوله (عليه السلام) : ((**فَلَا تُطَوِّلَنَّ احْتِجَابَكَ عَنْ رَعِيَّتِكَ فَإِنَّ احْتِجَابَ الْوُلَاةِ عَنِ الرَّعِيَّةِ شُعْبَةٌ مِنَ الضِّيقِ وَقِلَّةُ عِلْمٍ بِالْأُمُورِ وَالِاحْتِجَابُ مِنْهُمْ يَقْطَعُ عَنْهُمْ عِلْمَ مَا احْتَجَبُوا دُونَهُ فَيَصْغُرُ عِنْدَهُمُ الْكَبِيرُ وَيَعْظُمُ الصَّغِيرُ وَيَقْبُحُ الْحَسَنُ وَيَحْسُنُ الْقَبِيحُ وَيُشَابُ الْحَقُّ بِالْبَاطِلِ**))[٢٦] .جمالية هذا النص تكمن في استلهام الواقع الاجتماعي وتصويره في لغة شعرية تمتاز بالوضوح في قصد الافهام والقوة قصد التأثير ، وتمتاز بقوة المؤثرات الدلالية التي تعمل على تحريك الخزانة الفكرية للمتلقي وحثّها على التأمّل لاستيعاب الآخرين بكل اشكالهم وانتمائاتهم ، وتجسد ذلك في وصية الإمام علي (عليه السلام) لمالك الاشتر حينما ولّاه مصر إذ بدأ الخطاب بـ(النهي الارشادي) في قوله : (لا تطولن) بعدم الاحتجاب عن الرعية وترك أمور مواجهتهم بيد خواص الحاكم , وعدم معرفة أحوالهم وظروفهم المعيشية ، وبيّن سبب النهي بذلك بصيغة (التعليل) الممزوج بالمجاز في اطلاق اسم اللازم على ملزومه في قوله : (انه قلة علم بالأمور) مؤكّداً ذلك بقوله: (الاحتجاب منهم يقطع علم ما احتجبوا دونه) معضداً الصورة هنا بـ(المقابلة) في قوله : (يصغر عندهم الكبير ، ويعظم الكبير) ، و(العكس والتبديل) في (يقبح الحسن – يحسن القبيح) تستصغر صغار الأفعال الصادرة بحق الناس وإن كانت عظيمة ، وتستعظم صغار الأفعال من الناس بحقهم وإن كانت صغيرة ، وبعد ذلك يقبُح عندهم الحسن ، ويحسُن القبيح عندهم ، حتّى يُشاب الحق بالباطل ويعمُّ بذلك الخراب في الحكم ، وكلّ هذا سببه احتجاب عن رعيته . فواحدة من مفاهيم التسامح أن يكون الإنسان حاضراً بين أخوته ورعيته دوماً حتّى يُجنبهم الخطأ ويحملهم على فعل الصواب ويجنب نفسه الشكّ . والذي يُنعم النظر يرى أن الإمام ركّز على خلق الصورة الضدّية في نصّه لما تفعله هذه الصورة في الآخرين ، فهي تعمل على مفاجأة المتلقي عن طريق اللعب بالخيال وخلق صورة تحمل طابع الغرابة لخرقها عادة التصوير فيوظف حركة معينة تنقل متذوق الصورة من نقطة إلى أُخرى مضادة لها[٢٧]. الغاية من ذلك خلق روح جمالية على النص يرتشف منها المتلقي خلاصة المعنى فترتوي نفسه منها ليتبيّن صداها عند الغير . ومن قوله (عليه السلام) : ((**يَا بُنَيَّ اجْعَلْ نَفْسَكَ مِيزَاناً فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ غَيْرِكَ فَأَحْبِبْ لِغَيْرِكَ مَا تُحِبُّ لِنَفْسِكَ وَاكْرَهْ لَهُ مَا تَكْرَهُ لَهَا وَلَا تَظْلِمْ كَمَا لَا تُحِبُّ أَنْ تُظْلَمَ وَأَحْسِنْ كَمَا تُحِبُّ أَنْ يُحْسَنَ إِلَيْكَ وَاسْتَقْبِحْ مِنْ نَفْسِكَ مَا تَسْتَقْبِحُهُ مِنْ غَيْرِكَ وَارْضَ مِنَ النَّاسِ بِمَا تَرْضَاهُ لَهُمْ مِنْ نَفْسِكَ وَلَا تَقُلْ مَا لَا تَعْلَمُ وَإِنْ قَلَّ مَا تَعْلَمُ وَلَا تَقُلْ مَا لَا تُحِبُّ أَنْ يُقَالَ لَكَ**))[٢٨] . فاعلية هذا النص تكمن في صياغته التي تبعث على الدهشة وجماليات الابداع الفني للنص من خلال تصوير أحد مفاهيم التسامح وهو عدم ظلم الآخرين بما تمدّه البلاغة من طاقات تعبيرية مؤثّرة ، صِيغت في نسق لغوي متميّز شكّل دلالة نوعية متفرّدة تعتمد على تكثيف العبارة ، غايتها تحريك الخزانة الفكرية للمتلقي حيث بدأ بـ(الاستعارة) في قوله : (اجعل نفسك ميزاناً) مستعيراً لفظ الميزان ووجه المشابهة فكما أن الميزان يعدل بين الكفتين بالتساوي ، كذلك يجب العدالة بينه وبين غيره من الناس ، وعضّد تلك الصورة بـ(التضاد) في قوله : (احبب – أكره) و (احسن – استقبح) و(تعلم – لا تعلم) و(الجناس المحرّف) في (تَظْلم – تُظْلم) ، فضلاً عن شمول النصّ لمفهومي (الأمر والنهي) لغرض النصح والارشاد ، والنصّ في مجمله قائم على وصية ابنه الحسن (عليه السلام) بأن يجعل نفسه ميزاناً في ما بينه وبين غيره من خلال محبته لغيره مثلما يُحب نفسه , وأن يكره لهم ما يكره لنفسه ، وأن لا يظلم الآخرين مثلما أن لا يحب أن يظلمه أحد ما , وأن يحسن لغيره من الناس كما يحب أن يحسن إليه ، وأن يستقبح فعال الأمور الصادرة من نفسه كما يستقبح حصولها من غيره بالابتعاد عن نواهي الله ومعاصيه ، وكذلك الحال نفسه في رضاء النفس ، ونهاه عن قول ما لا يعلم وإن قلّ علمه بذاك الشيء حتّى لا يُنسب قوله إلى الجهل فيَضل ويُضِل ، فضلاً عن ذلك نهاه عن قول العيوب والألقاب المكروهة إلى الناس كما لا يُحب أن يقال له مثل تلك الأوصاف المؤذية . ومرة أخرى إلى جانب الفنون البلاغية يخلق الإمام صورة ضدّية في عباراته وذلك لأن ((عرض المتضادات في نسق مؤتلف يثير انتباه السامع إلى الفكرة فيشتد تقبله لها لما بين التفكير والتعبير من انسجام))[٢٩] ، وهذه هي وظيفة الكاتب عموماً في تقديم نصّه بصورة لا تغادر ذهن المتلقي من الوهلة الأولى . وقوله (عليه السلام) : ((**احْمِلْ نَفْسَكَ مِنْ أَخِيكَ عِنْدَ صَرْمِهِ عَلَى الصِّلَةِ، وَعِنْدَ صُدُودِهِ عَلَى اللُّطْفِ وَالْمُقَارَبَةِ، وَعِنْدَ جُمُودِهِ عَلَى الْبَذْلِ، وَعِنْدَ تَبَاعُدِهِ عَلَى الدُّنُوِّ، وَعِنْدَ شِدَّتِهِ عَلَى اللِّينِ، وَعِنْدَ جُرْمِهِ عَلَى الْعُذْرِ، حَتَّى كَأَنَّكَ لَهُ عَبْدٌ، وَكَأَنَّهُ ذُو نِعْمَةٍ عَلَيْكَ**))[٣٠] .هذا النصّ يقوم على المسحة البلاغية المكتظة بشعرية التضاد ، والمعبّرة عن التسامح متجاوزاً المبنى والمعنى للتعبير عن اللحظة الشعورية التي يكون عليها الإنسان حينما يتخاصم مع الآخرين ، بوساطة تلك الألوان البلاغية الاستنطاقية التي جيء بها لغرض القضاء على مواطن الانفعال النفسي لدى المتلقي في الصفات المذمومة وتوظيفها جمالياً ودلالياً بتقديم صورة ترقى من المحسوس إلى الذهن . الإمام (عليه السلام) هنا يضع صوره المتضادة بين لونين بلاغيين الأول : (المجاز المرسل) في قوله : (احمل نفسك) في

علاقته الجزئية بذكر الجزء في (النفس) وقصده الكل ، وهو الإنسان بكامل قواه العقلية والسمعية ، وبدأ بذكر (التضاد) المتوالي في (الصرم – الصلة) قاصداً بالصرم ، الصد والقطيعة ، و(الصدود – المقاربة) و(الجمود – البذل) و(التباعد – الدنو) ، و(الشدة – اللين) ، و(التقديم والتأخير) في الجار والمجرور في قوله : (كأنك له عبد) لأجل الاهتمام ، وختم عبارته بـ(التشبيه) في قوله (كأنك له عبد ، كأنه ذو نعمة عليك) فالإمام يوصي نجله بعدم الصد والقطيعة مع الأخوان والمبادرة بالمثل ، فهذا المبدأ لا يكون إلّا مع الاعداء ، وعدم إحداث الجفاء والصدود للآخرين بل يجب اظهار اللطف والمودة لهم حتّى لو رأيت من أخيك الاحجام عن الكرم ، أو الانفاق أو شيئاً من البخل فلا تبادله بالصفة نفسها بل بادره بالبذل فإنك بذلك تخرجه من هذه الحالة إلى حالة الكرم . وإن بادرك بالابتعاد عنك بادر أنت إليه بالدنو والاقتراب منه ، فلعلّه يعاني من مشكلة فتكون أنت سبباً للخلاص منها ، وقد تحصل منه الشدّة في غير موضعها بسبب ظرف قاهر يعيشه فلا ينبغي أن تواجهه بالشدة نفسها ، وإذا حصلت منه الإساءة فلا تبادر بمثلها وإنّما اجعل الإحسان عنواناً لك محتملاً له العذر في ذلك . فهذه العبارات القيمة والنصوص العلوية الفذّة التي ذكرناها آنفاً تحمل مفهوم التسامح بكل معانيه ، وعلى بني البشر التحلّي بتلك القيم النبيلة والأخلاق الفضيلة ، ولاسيّما نحن أبناء الدين الإسلامي نلتزم بتعاليمه ونعمل بمناهجه ، فحريّ بنا التحلّي بتلك الصفة التي سار عليها الأنبياء والأولياء والصالحين ممّن كانوا قبلنا .

الخاتمة

١–الذي يُنعم النظر في فضاء نهج البلاغة على وجه العموم ، ووصاياه على وجه الخصوص يرى أن التسامح بمفاهيمه المتعدّدة شكّل المساحة الأكبر فيها .

٢–إنّ أغلب ولاة أمر المسلمين الذي تمّ تعيينهم في الأمصار من قبل الإمام علي (عليه السلام) ترى دائماً أن مفهوم التسامح هو الركيزة الأبرز التي يوصلها الإمام إليهم ويحثّهم عليها .

٣–بسبب أهمية هذا المفهوم في فكر الإمام تراه قد نسج خيوطه بمختلف الفنون البلاغية ، بل واستعمل أكثرها تأثيراً في المتلقين من أجل ترسيخه في عقول الآخرين.

٤–شكّلت الصورة الضدّية الجانب الأبرز لمفهوم التسامح بما تحمله من أبعاد تأثيرية وقيم جمالية لها أثر كبير في مخيلة القارئ تسهم في استلهام معنى التسامح.

٥–لا تقلّ أهمية المظاهر البلاغية الأخرى عن التضاد في صياغة صورة التسامح ، فقد جاءت مساندةً بعضها البعض في إحداث انزياحات دلالية ، تنهض بالنص إلى الشعرية .

هوامش البحث

---

(١) جدلية الخفاء والتجلي : ٢٩ .

(٢) الصورة الفنية في المثل القرآني : ٣٢ .

(٣) رماد الشعر : ٢٢٤ .

(٤) ينظر : الصورة والبناء الشعري : ٣٢ .

(٥) الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث : ١١٦ .

(٦) الأُسس النفسية لأساليب البلاغة العربية : ٢٢٢ .

(٧) جدلية الخفاء والتجلي : ٥٨ .

(٨) عن بناء القصيدة العربية الحديثة : ٩١ .

(٩) ينظر : لسان العرب : مادة (سمح) .

(١٠) سؤال التسامح : ٢٤ ، ٢٥ .

(١١) نهج البلاغة : ٢٨ .

(١٢) الطراز : ١ / ٦٧ .

(١٣) ينظر : البلاغة والبيان : ٩٣ .

(١٤) شرح نهج البلاغة : ١٠٨/١٦.

(١٥) ينظر : مجمع الأمثال: ١ /٣٣ .

(١٦) فن الاستعارة : ١٢٦ .

(١٧) شرح نهج البلاغة : ١٧/ ٥ .

(١٨) المصدر نفسه: ٩ /٢٨٢ .

(١٩) شرح نهج البلاغة – ابن ميثم البحراني : ٦٧٠/٣ .

(٢٠) ينظر: شرح نهج البلاغة : ٩ / ٢١٦ .

(٢١) المصدر نفسه : ١١٢/٨ .

(٢٢) شرح ابن عقيل : ٣٠٠/٣ .

(٢٣) شرح نهج البلاغة : ٣٢/١٧ .

(٢٤)المصدر نفسه : ٥١/١٧ .

(٢٥) م .ن : ١٦٣/١٥ .

(٢٦) م . ن : ٩٠/١٧.

(٢٧) ينظر : خصائص الأسلوب في الشوقيات : ١٢١ .

(٢٨) شرح نهج البلاغة : ٨٤/١٦ .

(٢٩) دراسات في البلاغة العربية ، عبد العاطي غريب علام : ٧٢ .

(٣٠) شرح نهج البلاغة : ١٠٤/١٦ .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم**
- الأسس النفسية لأساليب البلاغة العربية , د.مجيد عبد الحميد ناجي , ط١ , المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع , ١٩٨٤م .
- البلاغة والبيان وفصاحة الكلام عند سيدنا الإمام ، راضي محمد عبد نواصره، ط١، مؤسسة حمادة للدراسات الجماعية والنشر والتوزيع ، دار اليازوري ، الأردن ، ٢٠١١م.
- جدلية الخفاء والتجلي , كمال أبو ديب , ط١ , دار العلم للملايين , بيروت , ١٩٧٩م .
- خصائص الأسلوب في الشوقيات , بقلم محمّد هادي الطرابلسي , منشورات الجامعة التونسية , طبع بالمطبعة الرسمية للجمهورية التونسية , ١٩٨١م .
- دراسات في البلاغة العربية , عبد المعاطي غريب علّام , ط١ , منشورات جامعة قازيونس , بنغازي , ١٩٩٧م .
- رماد الشعر , دراسة في البنية الموضوعية والفنية للشعر الوجداني الحديث في العراق , د.عبد الكريم راضي جعفر , ط١ , دار الشؤون الثقافية العامة , بغداد , ١٩٩٨م .
- سؤال التسامح ، دراسة وحوار مع الباحث د. عبد الحسين شعبان ، مجموعة من المؤلفين، ط١ ، دار الخليج ، المملكة
- شرح ابن عقيل علي ألفية ابن مالك : لابن عقيل الهمداني ، بهاء الدين عبد الله (ت٧٦٩هـ) ، تحقيق : محمد محيي الدين عبد الحميد ، د.ط ، مكتبة دار التراث، القاهرة ، ١٩٩٨م .
- شرح نهج البلاغة ، شرح نهج البلاغة : للمعتزلي ابن أبي الحديد ، عبد الحميد بن محمد (ت٦٥٦هـ)، تحقيق : محمد أبو الفضل إبراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، بيروت ، د.ت.
- شرح نهج البلاغة ، ميثم بن علي البحراني (ت٦٧٩هـ) ، ط١، منشورات الفجر ، بيروت ، ٢٠٠٩م .
- الصورة الشعرية في النقد العربي الحديث , بشرى موسى صالح , ط١ , المركز الثقافي العربي , بيروت , ١٩٩٤م .